

الشوقيات الجزء الأول

يبدأ الجزء الأول من (الشوقيات) وبه مقدمة الدكتور هيكل، وكان في النية أن أنظر في تلك المقدمة نظرة نقدية، على نحو ما صنعت بالمقدمة التي صدر بها ديوان البارودي، ولكنني لم أجد المقدمة المنشودة في النسخة التي بين يدي، فأين ذهبت؟؟ وكيف رضيت أن تظل نسختي عاطلة من تلك المقدمة العصماء؟؟

لذلك تاريخ يجب تسجيله قبل أن يضيع، فقد تأتى أيام نجهل فيها مآثر الشوقيات وما مر بها من ظروف، وللتاريخ الأدبي علينا حقوق، فما ذلك التاريخ؟

النسخة التي بين يدي ناقصة، ولكنها نفيسة جدا لأنها على نقصها مصححة بقلم (شوقي) في مواضع كثيرة، وليس ذلك بالمغرم القليل وأواجه ذلك التاريخ فأقول:

(كانت الصلة قوية بيني وبين (شوقي) في سنة ١٩٢٥ وكان شرع في طبع (الشوقيات) فشاء لطفه وكرمه أن يدعوني لكتابة المقدمة بعبارة لا أزال أذكر نصها بالحرف:

(سيكتب الدكتور هيكل مقدمة تاريخية وستكتب أنت مقدمة أدبية)^(١).

وبعد أيام تلتطف فأهدى ما طبع من الجزء الأول مصححاً بخطه الجميل،
لأكتب تقديمه ما أريد.

ورجعت إلى نفسي فتذكرت أن المقدمات يلتزم فيها الترفق، وذلك ما يجمل
بكاتب مشغول بالنقد الأدبي مع شاعر لا يزال في الميدان، وأسرعت فكتبت
إليه خطاباً قلت فيه:

إني لا أستطيع كتابة المقدمة التي ينتظرها أمير الشعراء، لأنني أخشى أن
أقول فيها كلاماً يصدني عن نقده إن رأيت في أشعاره المقبلة ما يوجب الانتقاد
وهو -بارك الله في عمره- لا يكف عن مساورة الشعر والخيال في صباح أو
مساء. وفي عصرية اليوم الذي كتبت فيه ذلك الخطاب قابلت الدكتور طه
حسين وأخبرته بما وقع، فغضب أشد الغضب وقال: (ليتك استشرتني قبل أن
تصنع ما صنعت.. ألا تعرف أنك أضعت على نفسك فرصة من فرص
التشريف؟؟ لو طلب (شوقي) مني ما طلب منك -وأنا خصمه- لاستجبت
بلا تردد، فشوقي في رأيي هو أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبي).

وبعد شهور طوال ظهر الجزء الأول من (الشوقيات) وبه مقدمة الدكتور
هيكل ونادى المنادي بوجود الاحتفال بتكريم أمير الشعراء احتفالاً يشترك فيه
من يستطيع من أدباء الأمة العربية، وبرعاية الزعيم سعد زغلول.

ثم يقام الحفل بدار الأوبرا الملكية في التاسع والعشرين من نيسان ١٩٢٧
ويقول الشعراء والخطباء في (شوقي) ما يقولون بإطنا ب ويلتفت الدكتور
هيكل كاتب مقدمة (الشوقيات) فيرى من الواجب إصدار عدد خاص من

(السياسة الأسبوعية) لتكريم شوقي. ويدعى للاشتراك في تحرير ذلك العدد الخاص رجال كان فيهم كاتب هذا الحديث. ويرى (شوقي) من حقه أن ينظر في محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات كان فيها مقال.. ألم أستكبر عليه فأرفض كتابة مقدمة (الشوقيات).

(كانت السياسة الأسبوعية) في تلك الأيام توجه التيار الأدبي في مصر وفي سائر البلاد العربية وكان إصدار عدد خاص عن شاعر من مثل تلك المجلة يعد تزكية أدبية تفوق الوصف، ولكن (شوقي) لم يرتح كل الارتياح إلى ذلك العدد الخاص، فقد ظهرت عبارات تغض كثيرا أو قليلا من أمير الشعراء.

أخلاق شاعر الأخلاق^(١):

غضب شوقي على ذلك العدد من السياسة الأسبوعية وكان شوقي إذا غضب غضب معه ألف مرتزق من أدعياء الأدب، فمضى أولئك المرتزقة يقولون في الدكتور هيكل ما تسمح بنشره الورقات المتسمة زورا بوسم الجرائد والمجلات فكتب الدكتور هيكل في (السياسة الأسبوعية) مقاله المأثور:

(أخلاق شاعر الأخلاق) وهو مقال فصل فيه ما كان بينه وبين (شوقي) وتوعده توعدا أليما، فقد نص على أن (شوقي) لن يظفر منه مرة ثانية بمثل ذلك الاحتفال..

(١) عنوان مقال الدكتور هيكل باشا.

ورأيت أن أرجع إلى الدكتور طه أستفتيه، فابتسم وقال: كان مصيرك سيكون أفظع من مصير هيكल لو كتبت مقدمة (الشوقيات).

ثم ماذا؟؟ ثم ذهب (شوقي) الذي قطع ما بينه وبين كرام الرجال لأسباب لا تستحق أن ينصب لها ميزان، وبقي (شوقي) الشاعر الذي رثاه المازني يوم مات، بعد أن قال فيه ما قال.

دسائس صحفية:

فسد ما بيني وبين شوقي بعد اعتذاري عن كتابة مقدمة الشوقيات فانقطعت عن لقائه بمكتبه في شارع جلال، وانقطع هو أيضا فلم يعد يسأل عني.. وجاء طاغور أمير شعراء الهند فأقام له حفلة في داره دعا إليها أساتذة الجامعة المصرية، ولكنه تجاهل اسمي فلم يدعني إلى استقبال ذلك الشاعر الصناج.. وسمع بذلك الحادث جماعة من الصحفيين فحرضوني على إيذاء شوقي بمقال أو مقالين، وزعموا أن مال شوقي لا ينال بغير الهجاء..

وما لي أنا ومال شوقي أو غير شوقي؟؟

هل منحنا الله نعمة القلم الصوال.. لنبتز الأموال؟؟

إن شوقي حرمني فرصة التمتع بصوت طاغور وما صوت طاغور بالقياس إلى الموسيقى الشوقية؟ شوقي شاعر مصر، وهو على جحوده إنسان وأستاذ الأساتذة في ميدان القصيدة فمن الواجب أن أحفظ عهده إلى أن يموت، وقد مات قبل أن يسمع كلمة نابية من قلبي أو لساني.

فعليك يا شاعرنا العظيم ألف تحية وألف سلام وحفظ الله عهدك بين
أقطاب الأدب الرفيع.

كيف يدرس شعر شوقي:

الغرض من هذه الدراسة هو توجيه من سيتبارون في مسابقة الأدب
العربي، فماذا تقول في توجيه أولئك الشبان؟؟

أهم قصيدة في الجزء الأول من الشوقيات هي قصيدة (نهج البردة) ولهذه
القصيدة تاريخ يجدر به في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء) وما
أريد أن أعتنم الفرصة فأعلن عن كتابي في مجلة الرسالة بالمجان وإنما هي فرصة
للدارسين الأعزاء فإن درسوا ما كتبت عن تلك القصيدة في ذلك الكتاب
فسيقروا أبحاثا تجوز بهم الصراط في أمان..

وهناك مرجع ينفعهم في هذا الموضوع الدقيق وهو كتاب المدائح النبوية
في الأدب العربي وفي ذلك الكتاب تفصيل واف لتطور المدائح النبوية من عهد
حسان إلى عهد شوقي..

فقد بدأ من (التشيع) ثم صار بلاغيا يسجل فنون (علم البديع) ثم عاد
مدحا صرفا على لسان البارودي وشوقي والحملاني، ومع تفاوت في أسلوب
الأداء^(١).

(١) انظر همزية شوقي في مدح الرسول ولاحظ تأثره بهمزية البوصيري.

أما القصيدة الثانية فهي الأندلس الجديدة ويجب حفظها عن ظهر قلب، لأنها فيما نعتقد أعظم قصيدة جاد بها الشعر الحديث في تصوير التعاطف بين الأمم الإسلامية:

مقدونيا والمسلمون عشيرة كيف الخثولة فيك والأعمام
أترينهم هانوا، وكان بعزمهم وعلسوهم يتخايل الإسلام
إذ أنت ناب الليث كل كتيبة طلعت عليك فريسة وطعام

وقد سما شوقي بهذه القصيدة سمو لا يدرك مداه غير من يعرف أسرار الشعر وسرائر القلوب. وهذه القصيدة أهمية في تأريخ شاعرية شوقي، فقد كادت آراء النقاد تجمع على أن عبقرية شوقي لم تتفتح إلا بعد نفيه في أيام الحرب الماضية، وهو قد نظم هذه القصيدة في عام ١٩١٢ قبل النفي بأعوام.

ثم تحيء قصيدة (انتحار طالب) وهي قصيدة طوقت بها وزارة المعارف بأطواق من حديد، فالطالب المنتحر:
ناشئ في الورد من أيامه حسبه الله أبسالورد عثر؟؟
سدد السهم إلى صدر الصبا ورماه في حواشيه الغرر
يبدل لا تعرف الشر ولا.. خلقت إلا لتلهو وبالأكمر

ولكن كيف صنع الطالب بنفسه ذلك الصنيع الممقوت؟؟

قال ناس: صرعة من قيدر وقديما ظلم الناس القدر
ويقول الطب: بل من جنة ورأيت العقل في الناس ندر
ويقولون: جفاء راعه من أب أغلظ قلبا من حجر
وامتحان صععبته وطاة شدها في العلم أستاذ نكر

لا أرى إلا نظاما فاسدا فكك العلم وأودى بالأسر
من ضحاياه وما أكثرها ذلك الكاره في غض العمر

وتلك قصيدة نادرة، فليتفهمها الطلبة وليحفظوها عن ظهر قلب..
فموضوعها يكاد يتجدد في كل يوم وهي تنهى عن آفة من آفات الضعف في
هذا الجيل.

التغني بالآثار المصرية:

فاتحة الشوقيات هي قصيدة شوقي عن كبار الحوادث في وادي النيل. هذه
القصيدة تصحح غلطة وقع فيها صاحب (الموازنة بين الشعراء) فقد نص على
أن إسماعيل صبري هو أول شاعر سن مذاهب القول في وصف آثار الفراعنة
بعد أن ثار الجدل بينه وبين خليل مطران في سنة ١٩٠٤، ثم تشاء المقادير أن
يعرف المؤلف أن (شوقي) سبق صبري في التغني بتلك الآثار الخوالد في
القصيد الذي ألقاه في مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٤.

فما ذلك القصيد؟؟ هو قصيد طويل سجل به الشاعر ما كان لمصر من
تخليق وإسفاف في أعوام تزيد على خمسة آلاف..

وهنا يظهر العجب العجيب فقد كان شوقي ناشئا يوم نظم في ذلك
التاريخ ولكنه مع ذلك عرف كيف يهتف:

قل لبان بنى فشاد فغالى لم يحزم مصر في الزمان بناء
ليس في الممكنات أن تنقل الجبا ل شأما وأن تنال السماء
أجفل الجن عن عزائم فرعو ن ودانت لبأسها الأناء

شاد لم يشد زمان ولا أنشد أعصر ولا بنى بناء
 هيكل تشر الديانات فيه فهي والناس والقرون هباء
 وقبور تحط فيها الليالي ويواري الإصباح والإمساء

وهذه الباكورة كانت البشير بأن ستكون لشوقي مكانة في وصف آثار
 الفراعين.

لقد طوفت بأقطار كثيرة من الشرق والغرب فما رأيت عيني مثل ما ترك
 الفراعين بوادي النيل.

الحرب العثمانية اليونانية:

هي حرب وقعت في عهد السلطان عبد الحميد ولم يذكر الديوان تاريخها
 بالضبط. ولا اتسع وقتي لتحقيق ذلك التاريخ، وأين من يصدق أنني أكتب هذه
 الصفحات وأنا في قطار الصعيد؟؟

وهي إحدى قصيدتين اعترف بهما حافظ بشاعرية شوقي، ولم يكن حافظ
 يعترف لشوقي بشيء ولا كان شوقي يعترف لحافظ بشيء.. وآه ثم آه من تحاسد
 النظراء، اعترف حافظ بقيمة البائية:

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيان تضرب

اعترف حافظ بقيمة هذه البائية في كتاب ليالي سطيح ولا أعرف الآن موقع
 هذا الاعتراف من ذلك الكتاب فعهدي بقراءته يرجع إلى زمن بعيد.

أما القصيدة الثانية فهي بائية شوقي في (توت عنخ آمون) وكان حافظ يحفظ هذه البائية وقد أُنشدنيها مرات، وكان له في إنشادها ترجيع معروف..

كانت البائية فتنة العصر الذي ظهرت فيه، وكان جمهور الأدباء يحفظها عن ظهر قلب، وراويها في هذا اليوم هو الأستاذ محمد سعيد لطفي، وله بها هيام وغرام، فهو لينشدها كلما لاحت فرصة للحديث عن شوقي..

اقرأوا هذه البائية (يا شباب اليوم) لتعرفوا كيف نستهن بها ينظم الأطفال من الشعر في هذه السنين العجاف..

اقرأوا هذه البائية واحفظوها، فهي من آيات الشعر الحديث..

وما الأمر إلا للذي يتغلب	وما السيف إلا آية الملك في
لنعم المربى للطغاة المؤدب	فأدب به القوم الطعان فإنه
وإن هونام استيقظت تتألب	تنام خطوب الملك إن بات ساهرا

تكليل أنقرة وعزل الأستانة:

تلك قصيدة كافية تسجل انحسار الخلافة عن استامبول، بعد حوادث تشيب ناصية التاريخ وتصور عزة الترك بأنقرة في عهدهم الجديد.

وفي هذه القصيدة توجع شوقي لعزل استامبول واعتذر عن أبنائها الأماجد، فما نقلوا مركز الملك إلى أنقرة إلا رعاية لخطئة من خطط الدفاع عن البلاد..

لو أن سلطان الجبال مخلص
لمليحة لعذلت من عذلك

خلعوك من سلطانهم فسليهم
 لا يحزننك من حماك خطة
 أيقال فتیان الحمى بك قصرُوا
 وهم الخفاف إليك كالأنصار إذ
 المشتروك بما لهم ودمائهم
 هدرُوا دماء الذائدين عن الحمى
 شربُوا على سر العدو وغردوا
 لو كنت (مكة) عندهم لرأيتهم
 أمن القلوب وملكها خلعوك
 كانت هي المثلَى وإن ساءوك
 أم ضيعوا الحرمات أم خانوك؟
 قل النصير وعز من يفديك
 حين الشيوخ بجبة باعوك
 بلسان مفتي النار لا مفتيك
 كالبوم خلف جداول المدكوك
 كمحمد ورفيقه هجروك

وهو يشير في هذه الأبيات إلى ما وقع من رجال الدين في استامبول، فقد
 أفتوا بوجوب مقاتلة الكمالين طاعة للحلفاء، وكانوا احتلوا استامبول ولم
 يجلوا عنها بعد ذلك طائعين وإنما أكرهتهم السيوف الكمالية على الجلاء..

والشاعر يجعل انتقال أتاتورك ورفاقه من استامبول إلى أنقرة شبيهاً بانتقال
 الرسول صلى الله عليه وسلم ورفيقه من مكة إلى المدينة.. وهو تشبيه على
 جانب من الجمال.

انتصار الأتراك في الحرب السياسية:

ثم يلتفت القارئ مرة ثانية فيرى شوقي يرجع إلى تمجيد أتاتورك من جديد
 بقصيدة بائية على غرار بائية ابن تمام في فتح عمورية، وقد تلاعب فيها بالمعاني
 وجمال في فنون القول كل مجال..

كان عصمت باشا مندوب الأتراك في مؤتمر لوزان، وكان رجلاً ضعيف السمع لا يصل إليه الصوت إلا بالصياح، فجعله شوقي:

أصم يسمع سر الكائدين له ولا يضيق بجهر المحنق الصخب

والذي يقرأ أخبار الحرب في هذه الأيام يرى الانسحاب يوصف بالجمال وقد سبق شوقي كفه هذه الأيام فقال في انسحاب اليونان:

جد الفرار فألقى كل معتقل قناته وتخلّى كل محتقب
يا حسن ما انسحبوا في منطق تدعى الهزيمة فيه حسن منسحب

وكان سياسة اليونان منوا شعبهم بمملكة جديدة في بلاد الترك فقال شوقي:

هم حسنوا للسواد البله مملكة من لبدة الليث أو من غيلة
وأنشئوا نزهة للجيش قاتلة ومن تنزهه في الأجسام لم يؤب

وكان الدكتور طه حسين كتب مقالا في جريدة الاتحاد أراد من المقال التهوين من شأن هذه البائية، فهل ينظر فيها من جديد ليعرف أنه كان من المخطئين؟؟

رحالة الشرق:

وهذه قصيدة عينية قالها شوقي في تكريم الرحالة محمد حسنين باشا. كان استكشف واحتين في الصحراء اللوية، ويضيق المقام عن شرح ما في هذه القصيدة من أغراض، ومع هذا لا يفوتني أن أدل الدارس على سجية شوقي في

الجنوح إلى التأمل العميق من حين إلى حين وهل وازن أحد بين الصحراء
والحياة على نحو ما وازن شوقي بينهما إذ يقول:

كم في الحياة من الصحراء من	كلتاها في مفاجأة الفتى شزع
وراء كل سبيل فيهما قدر	لا تعلم النفس ما يأتي وما يدع
فلست تدري وإن كنت الحريص	تهب ريحاهما أو يطلع السبع
ولست تأنس عند الصحو فاجئة	من العواصف فيها الخوف والهلع
ولست تدري وإن قدرت مجتهدا	متى تحط رحالا أو متى تضع
ولست تملك من أمر الدليل	أن الدليل وإن أرداك متبع

والبيت الأخير من وثبات الخيال.

أما بعد فهذه كلمات سريعة بددت بها ساعات من الطريق بين القاهرة
والمنيا ولن أنظر فيها بعد ذلك. فليبلغها القارئ على هواه بالحمد أو بالملام
وهل يكلف الله نفسا إلا وسعها؟

أثنت على شوقي مرات وأنا أراجع الشوقيات ثم ملته مرة أو مرتين.

لقد أشرف بنفسه على طبع الجزء الأول والثاني فما كان ضره لو أرخ جميع
القصائد ونص على جميع المناسبات ليتمثل القارئ صور البواعث الروحية
والسياسية؟؟

قصائد شوقي تمثل معضلات عصره أصدق تمثيل، ولكن القراء لن يروها
خليقة بهذا الوصف إلا إذا شرحت مناسباتها بإسهاب فأين من ينهض بهذا
الواجب قبل أن تنسى تلك المناسبات؟؟

ثم أقول: إن الشوقيات زادت إيماني بمجد بلادي فقد امتطيت القطار
وأنا متخوف من ضجر الطريق، وما هي اللحظة حتى كانت الشوقيات وحيا
يهتف بأن كل بقعة من أرض مصر معهد مجد أو محراب فنون..

ليت شعري والدمر حرب بينه وأياديه عندهم أفياء
مالذي داخل الليالي منا في صبابنا ولليالي دهاء

في هذه اللحظة أشعر بالندم على أني ركبت القطار السريع، ولم أركب
القطار القشاش وهو القطار الذي يقف على جميع المحطات، ويباع فيه القصب
والبرتقال بسخاء؟؟ وما أسعد من يمر بالقطار على جميع المحطات المصرية وقد
بلغ عددها ٥٣٢.

يمر القطار السريع على قرى الصعيد مرور الطيف فلا يكاد المسافر يتذكر
أن كل قرية من تلك القرى فيها أرواح وقلوب ولأهلها تاريخ وتواريخ.

هذه منارة تدل على مسجد، فأين من يذكر أن مساجد الصعيد كانت لها
أياد بيض في حفظ العلوم الإنسانية؟؟

ذلك فلاح يناجي الأرض مناجاة الحبيب للحبيب.. فأين من يذكر أن
الفلاح المصري قد يكون أقرب الناس من الله، ثم لا تمنعه تقواه من انتهاب
شبر أو فتر من أرض الجيران؟؟

وهل يستطيع أحد أن يقنع الفلاح المصري بأن الجنة أجمل من أرضه
الغالية؟؟

ذنبك مغفور - أيها الفلاح - فاعص الله كيف شئت في انتهاب أرض
جيرائك فذلك شاهد بأنك تقدر نعمة الله على أهل هذه البلاد.

ثم ماذا؟ ثم أذكر أن هذا الكلام يخرج عن موضوع هذا المقال. وإني
سأطيل وسوف أصل إلى المنيا بعد لحظات وأن التماذي في الثرثرة أمر غير
مقبول:

وما ذنبي إذا فتتني بلادي؟؟

أمن الإثم هتافي بسالجمال في بلاد كل ما فيها جميل
لو بعيني نظر اللاحي وجمال لرأى الفتنة في كل سبيل

حار الناس في تعليل التفاوت بين شوقي وحافظ، لعرفانهم بأن (حافظ)
كان أذكى من شوقي بمراحل طوال، فهل آن لهم أن يعرفوا أن (شوقي) تقدم
لأنه كان من أكابر الملاك في هذه البلاد، وأن حافظا تخلف لأنه بشهادة نفسه لم
يملك من أرض مصر نصف فدان؟؟

ما أنا وما هذا الكلام؟؟ هي ثرثرة لا تليق برجل من الله عليه بركوب قطار
الصعيد وهو قطار يساير نهرا بين جبلين..

وتلك حال توحى بإعزاز السرعة والقسوة واللين، ومن هذه العناصر
الثلاثة يتكون جسر الخلاص؟؟

أحبك - يا وطني - أحبك أحبك بأعظم مما أحبك مصطفى كامل ومحمد
فريد وسعد زغلول.

لم يعان أحد من الظلم في وطنه مثل ما عانيت فما زادني ذلك الظلم إلا
عرفانا بجمال وطني، وهل رأيتم جميلا غير ظلام؟؟

قطار الصعيد في ١٧/١٢/١٩٤١

نكي مبارك